مجلـــة بدايـــات
Revue :Bidayat ISSN: 2676-198X
المجلد: الرابع(04) / العدد: الأول(01) / جانفي 2022 / ص ص: 118-132

رسالة النبا عن الوبا "ابن الوردي"

Lettre sur les Nouvelles de l'épidémie Ibn -el- wardi

مرزوق أبو بكر[1]

Merzoug boubakeur[1]

[1]– جامعة عمار ثليجي – (الأغواط)

البريد الإلكتروني : merzougboubakeur@yahoo.fr

تاريخ الإرسال:28-10-2021	تاريخ التحكيم:08-11-2021	تاريخ القبول: 11-11-2021	**تاريخ النشر**: 30-01-2022

ملخص البحث

لا تزال كتب التاريخ تؤرخ للحوادث الكبرى التي ألمت بحياة الأمم والأفراد، وتسرد ما لحقها من كوارث طبيعية، ومن مجاعات وأوبئة، فتكت بالإنسان والحيوان. ولعل وباء الطاعون الذي ضرب مصر وبلاد الشام سنة 794 هجرية شاهد على الدمار الهائل الذي عرفته البشرية في القرون الوسطى. وقد استطاع المؤرخ الأديب أن يؤرخ للوباء بطريقة جمعت بين التأريخ والأدب أي بين الفائدة والمتعة، مما جعله نصا جديرا بالقراءة والمناقشة.

الكلمات المفتاحية: وباء الطاعون؛ أدب الرسالة؛ أدب المقامة، صناعة البديع، عصر الضعف؛ ابن الوردي.

Abstract:

History books still chronicle the major accidents that afflicted the lives of nations and individuals, and list the natural disasters, famines and epidemics that have afflicted them, killing humans and animals. Perhaps the plague epidemic that struck Egypt and the Levant in the year 794 AH is a witness to the massive destruction that humanity knew in the Middle Ages. The literary historian was able to date the epidemic in a way that combined history and literature, that is, between interest and pleasure, which made it a text worthy of reading and discussion.

Key words: plague epidemic; letter literature; Al-Maqamah literature, the Badiah industry, the era of weakness; Pink son.

1. مقدمة:

لا تزال الكوارث الطبيعية، في تاريخ البشر، تودي بالإنسان والحيوان، وتقضي على مظاهر الحياة على وجه الأرض، لا ينجو منها إلاّ من قدّر له أن يكون بعيدا عنها، إلى جانب ما يضرب الأرض من مواسم جفاف وفيضانات تشحّ معها الأرزاق، وتحدث إثرها المجاعات، وتنتشر الأمراض والأوبئة، ثم تأتي صراعات البشر وحروبها، فتزيد الأرض دمارا وخرابا، والناس بؤسا وشقاء.

1– المؤلف المرسل: أبو بكر مروزوق : merzougboubakeur@yahoo.fr

ولا تزال كتب التاريخ تؤرخ لما أصاب دولة الإسلام – من مشرقها إلى مغربها – من مجاعات، وأوبئة كادت أن تعصف بها، لولا لطف الله، نذكر منها ما شهدته بلاد العراق والشام ومصر والحجاز من جائحة الطاعون الذي فتك بمئات الآلاف من الناس، وكان أشهرها طاعون بغداد، سنة 656هـ؛ عند اقتحام تتر المغول لها، وما نتج عن كثرة القتلى، التي لم يُتمكن من دفنها، فكان لجيف الآلاف، التي أفسدت الماء والهواء، أثر مدمر في حياة من بقي من أهل العراق، نجم عنه ظهور الطاعون، واستشرائه في ما وراء النهر، مخلفا مئات الألاف من الضحايا، ثم يأتي طاعون سنة 749هـ، زمن المماليك، فيفعل فعله المدمّر في الشام ومصر.

لقد بقيت شواهد هذه الأوبئة مسجلة مخلّدة في كتب المؤرخين، ومشاهدات الرحّالة، ومدونات الكتاب، ودواوين الشعراء، تشهد على هول ما جرى. ولعل الرسالة التي كتبها المؤرخ والأديب عمر بن الوردي[1] سنة 749هـ، واصفا جائحة (الطاعون) من أهمّ الرسائل الأدبية التي أحسنت نقل هذه الفواجع، مما يجعلها وثيقة تاريخية أمينة، وعملا أدبيا صادقا؛ يسرد قصة هذا الاجتياح الوبائي الأسود، خاصة أنّ ابن الوردي كان شاهدا على ذلك؛ وقد عاشه، وعايش مشاهده الدرامية في مدينة (حلب) السورية. وقال فيه شعرا، مبديا موقفه الجريء تجاه الطاعون[2]:

ولستُ أخافُ طاعوناً كغيري فما هوَ غيرُ إحدى الحسْنَيَيْنِ

فإنْ متُّ، استرحتُ من الأعادي وإنْ عشتُ، اشتفتْ أذني وعيني

لكنه يلقى مصرعه بعد يومين من قولهما، وقد بدت عليه أولى أعراض العدوى: التهاب غدد الرقبة، والإبطين، وحمى حارقة تنتهي بلفظ الدم، ومعها تلفظ الروح.

2. بنية النص الشكلية:

اختلف دارسو الأدب ونقاده حول جنس نص ابن الوردي (النبا عن الوبا): هل هو من "أدب المقامات"، أو من "أدب الرسائل". وكانت حجة من ذهبوا إلى مقاميته: شيوع هذا الشكل الفني في أدب عصر المماليك، وفي أدب ابن الوردي بشكل ملحوظ، وأن انصراف أدباء العصر إلى الصناعة البديعية، والهوس بالتورية والتضاد، وبالجناس والسجع، قد حملهم على تبنّي شكل المقامة، الذي يمنحهم مسوّغا لتكثيف الصناعة البديعية، بل تغدو البديعيات فيها غاية في حدّ ذاتها.

وقد وجد من أدباء العصر من يقرّ بجنسه المقامي؛ فها هو شمس الدين السخاوي، صاحب كتاب "وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام"، يشير إلى أنّ ابن الوردي "**قد عمل في هذا الوباء مقامة بليغة**"[3]، كما يذكر ابن شاهين الظاهري، صاحب كتاب "نيل الأمل" عند ترجمته لابن الوردي، أنّه "**عمل مقامة في هذا الوباء، ومات عُقَيْبها، وهي مشهورة لطيفة رقيقة**"[4].

غير أنّ ابن الوردي في ديوانه (وقد جمعه ورتّبه بنفسه)، يجعلها ضمن أدب الرسالة، لا أدب المقامة[5]، بل يذكر ابن الوردي، بنفسه، في تاريخه الكبير "تتمّة المختصر في أخبار البشر"، وهو يؤرخ لسنة دخول الطاعون مدينة حلب، أنّها من أدب الرسائل، فيقول: "**وفي شهر رجب، وصل الوباء إلى حلب – كفانا الله شرّه – وعملت فيه رسالة، سميتها (النبا على الوبا)..**"[6].

ونجد من نقاد العصر الحديث من يؤيد رساليتها – أيضا –، حيث يقول فيها شوقي ضيف: ".. **وتسميتها – كما جاء في الديوان – باسم رسالة أولى؛ لغياب الرواية والحوار، ومثلها رسالته التي كتب فيها مفاخرة بين السيف والقلم**.."[7].

3. بنية النص الفكرية:

الرسالة – التي بين أيدينا – موحدة المضمون، مرتبة الأجزاء، بدأها (ابن الوردي) مستعيذا بالله، محتسبا إليه، متوسلا بجاه نبيه (صلى الله عليه وسلم) من شرّ الطاعون:

((اللهُ لي عُدَّهْ * عند كلِّ شِدَّهْ * حسْبيَ اللهُ وحدَهْ * أَليْسَ اللهُ بكافٍ عبْدَهْ * اللّهمَّ صلِّ على سيدنا محمدٍ وسلِّمْ * ونجِّنا بجَاهِهِ منْ طعَناتِ الطاعونِ وسلّمْ)).

ثم ينطلق في السرد والوصف، مشيرا إلى هذا الزائر المروّع، القادم من الصين. ولعل من المفارقة، ونحن نخوض في موضوعة الأوبئة، أن يجعل ابن الوردي مصدر الوباء هو بلد الصين، لطبيعة مناخها الرطب، وغرابة طعام سكانه، إلى جانب كثافة العدد السكاني، وكثرة الصراعات الدامية بينهم، وليس وباء (الكورونا) القادم منها ببعيد عنا.

ثم كان زحف هذا الوباء على بلدان الشرق (الهند – السند – أزباكستان)

((طاعونٌ روّعَ وأماتْ* وابْتدأَ خبرُهُ منَ الظلماتْ * يا لهُ من زائرْ* مِن خمْسَ عشرةَ سنةٍ دائرْ * ما صِينَ عنه الصِّينْ * ولا منعَ منه حِصنٌ حصينْ * سَلَّ هِنديًا في الهِندِ * واسْتنَدَ على السِنْدِ * وقبَضَ بكفَّيْهِ وشَبَّكْ * على بلادِ أَزْبَكْ * وكمْ قَصَمَ من ظهْرٍ * فيما وراءِ النهْرِ.))

ويستمر ابن الوردي في كلامه عن هذا الزاحف الفاتك، راسما خريطة اجتياحه، ومسرح تفشّيه، بعد أن دخل بلاد فارس، ثم يزحف على منطقة البلقان، مقتحما – بعدها – جزر البحر المتوسط، ملتفّا على قبرص والجزائر*.

((ثم ارتفعَ ونَجَمْ * وهجمَ على العَجمْ * وأوْسعَ الخُطَى * إلى أرضِ الخَطَا * وقرَمَ القَرِمْ * ورمَى الرُومَ بجمْرٍ مُضْطَرِمْ * وجرَّ الجَرائرْ * إلى قُبْرُصَ والجزَائرْ))

ومن البحر المتوسط، سهل على الطاعون الالتفاف على مصر، فيدخل الإسكندرية، فينتشر في القاهرة.

((ثمّ قهرَ خَلْقًا بالقاهِرهْ * وتنبَّهَتْ عيْنُهُ لمِصرَ، فَإذا همْ بالساهرَهْ * وأسكَنَ حَرَكَةَ الاسْكَنْدرِيَّهْ * وعمِلَ شُغْلَ القَزِّ الحَريريَّهْ * أخذَ مِن دارِ الطِّرازِ طِرازَ الدارْ * وصنَعَ بصُنّاعِها ما جرَتْ عليهِ الأقدارْ.))

ثم يصيب بعض الحجاز، وبعض بلاد المغرب (برقة)، لكنّه يسرع الخطى إلى بلاد الشام، حيث غزة، وعسقلان، وعكا، والقدس، وصيدا، وبيروت، إلى أن يصل دمشق، فيكثر فيها، وفي مدنها وقراها الفتك.

((ثم تيَمَّمَ الصَعِيدَ الطَيِّبْ * وأبْرقَ على بُرْقَةَ منْهُ صَيِّبْ * ثم غزَا غَزَّهْ * وهزَّ عسْقلانَ هَزَّهْ * وعَكَّ إلى عَكَّا * واسْتَشْهدَ بالقُدسِ، وزَكَّى * فلَحِقَ من الهاربينَ الأقْصىَ بقلْبِ الصَّخْرهْ * ولولا فتْحُ بابِ الرحمهْ، لقامتِ القائمةُ في قرَّهْ *

ثم طوَى المراحِلْ * ونزلَ بالساحِلْ* فصادَ صيْدَا * وبَغَتَ بيْروتَ كيْدَا * ثمّ سدَّدَ الرَشْقْ * إلى جِهةِ دِمشْقْ * فتربَّعَ ثَّمَ، وتميَّدْ * وفتَك كلَّ يومٍ بألْفٍ، وأزْيدْ * فأقلَّ الكثْرةْ * وقتلَ خَلقًا بِبَثْرَهْ.))

غير أن كاتب الرسالة يقف هنيهة؛ ليصف أعراض هذا الوباء وسيمائه، استنادا إلى ما شاهده من علامات على المطعونين، وصورة فتكه السريع بهم:

((ومن الأقدارْ * أنّه يتتبَّعُ أهلَ الدَّارْ * فمتى بصَقَ أحدٌ منْهمْ دَماَ * تحقّقوا كلُّهمْ عَدَماَ* ثمّ يسْكنُ الباصِقُ الأجْداثْ * بعد ليلتيْنِ أو ثلاثْ)).

وبذكر أبرز أعراض هذا الوباء القاتل على الناس، يسرد صورة مواجهة الناس لهذه الجائحة، بطريقة تجعلنا نستحضر – من جديد – صورة الوقاية من وباء (الكوفيد)، في زمننا المعاصر، فيقدم لنا مشهدا للإجراءات الوقائية التي لجأ إليها أهل حلب عبر بروتوكول وقائي يخضعون إليه في مطعمهم ومشربهم، وتطهيرهم وتعقيمهم.

((ولوْ رأيتَ الأعْيانَ بحلَبَ، وهمْ يَطالعونَ من كُتُبِ الطبِّ الغوامِضْ * ويكُثِرونَ مِن أكلِ النواشِفَ والحوامِضْ * قد تنَغَّصَ عيْشُهم الهَنيّ * بمُلاطَخةَ الطينَ الأرْمِنِي * قدْ لاطفَ كلّ منْهم مِزاجُه وعدَّلْ * وبخَّرُوا بيُوتَهم بالعنبرِ والكافورِ، والسعْد والصَنْدلْ * وتخَتّمُوا بالياقوتْ، وجعلوا البصَلَ والخَلَّ من جُملَةِ الأدَمِ والقُوتْ * وأقلّوا من الأمْراقِ والفاكِهَهْ * وقرّبوا إليهم الأُتْرُجَّ، وما شَابَهَهْ))

ويلتفت ابن الوردي إلى ظاهرة اجتماعية عادة ما تصنعها مصائب الناس ومآسيهم، وهم صعود طبقة من الانتهازيين استغنت واستثرت من عمليات الدفن الواسعة؛ إنّها طبقة "الجنائزية"، ويقصد بهم حملة النعوش والتوابيت.

((ولو شاهدْتَ كثرةَ النُعوشِ وحمَلَةَ الموْتَى* وسمعْتَ من كلّ قُطْرٍ بحَلَبَ نحِيبًا وصوْتَا * لوَلَّيْتَ منهمْ فِرَارَا * ولأبَيْتَ فيهمْ قَرَارَا * فلقدْ كثُرتْ فيها أرزاقُ الجنَائزِيَّة، فلا رُزِقُوا * وعاشُوا بهذا الموْسِمِ، وعُرِفوا من الحمْلِ، فلا عاشُوا ولا عَرَفُوا * فهمْ يلْهَون ويلْعبُونْ* ويتقَاعَدُون على الزُبُونْ))

وهنا، يقف مستغفرا، متضرّعا، متعوّذا من سخط الله على من انتهزوا فرصة الإثراء بالتسلّق على آلام الناس ومآسيهم.

((فنسْتغْفِر اللهَ من هوى النفوسِ؛ فهذا بعضُ عِقابِهْ * ونعوذُ برِضاهِ من سخَطِهْ، وبمُعافاتِه من عذابِهْ:

قـــالوا: فســـادُ الهـــواءِ يُـــرْدِي فقلـــتُ: يـــرْدي هَـــوَى الفَسَـــادِ

كـــمْ ســـيْئاتٍ، وكـــمْ خَطايَـــا نـــادَى علـــيْكمْ بهـــا المـــنُادِي

كما التفت إلى أولئك النصارى (لعلّه يقصد طائفة الأرمن)، الذي شمتوا في المسلمين، واشتفوا من مصيبتهم، حين اعتقدوا أن الطاعون تأييد من الله للصليبيين، وتعزيز لحربهم المقدسة ضد الإسلام، وما علموا أن الطاعون، إذا نزل أرضا، لا ينتقي الناس، ولا يفرق بين مسلم ونصراني وكافر.

((ومما أغْضبَ الإسلامْ * وأوْجبَ الآلامْ * أنَّ أهْلَ سِيسَ الملاعِينْ * مسْرورُون لبلادِنا بالطواعينْ * حتى كأنَّهُمْ منْه في أمَانْ * أو عليهمْ ألاّ يَقْربَهم ضَمانْ * أو كأنّهُم، إذا ظَفَرُوا * ربَّنَا لا تجْعلْنا فِتْنةً للَذينَ كَفَرُوا:

سُكانُ سِيسَ يسُرُّهُمْ مَا سَاءَنَا وكذَا العوائدُ من عدوِّ الدينِ

فاللهُ ينْقلُهُ إليْهِمْ عاجِلاً لِيُمَزِّقَ الطَّاغُونَ بالطَّاعونِ

في المقابل، يُظهر ابن الوردي صورة الإذعان لقضاء الله وقدره، محتسبا المطعونين عند ربهم من الشهداء، وأن الله يبعث برسائله عبر جنوده، لعل الناس تؤوب، وتستيقظ من غفلتها، وتتوب.

((هوَ للْمسلمينَ شهادةٌ وأجْرُ * وعلى الكافرين رِجْزٌ وزَجْرُ * إذا صبَر المسلمُ على مُصيبَتِهِ، فالصبْرُ عِبادَهْ)).

ثم تظهر شخصية ابن الوردي، العالم الفقيه، الذي يحسن المحاجّة والإقناع في مسألة القضاء والقدر، وفي فقه الكوارث، متناولا قضية العدوى بالطاعون.

وقد ثَبُتَ عنْ نبيِّنا (صلى الله عليه وسلم) أنّ المطعونَ شهيدٌ، فهذا الثُبوتُ حكْمٌ بالشَهادَهْ * وهذِه الخفِيّهْ * تعْجِبُ الحنَفيّهْ * فإنْ قال قائِلٌ: هو يُعْدي ويُبِيدْ * قلتُ: بلِ اللهُ يُبْدِي ويُعيدْ * فإنْ جادَلَ الكَاذِبُ في دعْوَى العَدْوَى وتأَوَّلْ * قلنا: فقدْ قالَ الصادقُ (صلى الله عليه وسلم) فمنْ أعْدَى الأَوَّلْ * ولوْ سَلَّمْنا فَتْكَهُ بأهلِ الدارْ * فهو بإرادةِ الفاعِلِ المُخْتارْ * ومن فوائدِه: تقْصِيرُ الآمالْ * وتحْسينُ الأعمالْ * واليقَظةُ من الغفْلَهْ * والتزَوُّدُ للرِحْلَهْ)).

وينظم ابن الوردي صورة شعرية لهذه العودة والإنابة في خلال سلوك الناس وتصرفاتهم، استعدادا لقضاء الله:

فهذا يوَصِّي بأولادِهِ وهذا يودِّعُ جيرانَه

وهذا يهيِّئُ أشغالَه وهذا يُجهِّزُ أكفانَهُ

وهذا يصالحُ أعداءَهُ وهذا يلاطف إخوانَهُ

وهذا يوسِّعُ إنفاقَهُ وهذا يخالِلُ مَنْ خانَهُ

هذا يحبِّسُ أملاكَهُ وهذا يحرِّرُ غِلْمانَهُ

وهذا يُغيِّرُ أخلاقَهُ وهذا يعيِّر ميزانَهُ

ثم يختم رسالته بالتوجّه إلى الناس؛ يحثهم على كثرة الدعاء، وأن يفروا إلى الله؛ طالبين الغوث، وسائلين رفع البلاء، متشفعين بنبيّ الرحمة، أن يتوسّط لهم بالعفو والعافية والمعافاة.

((وما منَعنَا الفِرارَ منْهُ إلاّ التَمسُّكُ بالحديثْ * فهلُمَّ بنا نسْتغيثُ إلى اللهِ – تعالى – في رفْعِه، فهو خيرُ مُغيثْ * : اللّهمّ إنّا ندْعوكَ بأفْضلِ ما دعاكَ به الداعُونْ * أنِ ترْفعَ عنَّا الوبَا والطاعونْ * لا نلْتَجِي في رفْعِهِمَا إلاّ إليْكْ * ولا نُعَوِّلُ في العافِيَةِ منْهُما إلاّ عليْكْ * نعُوذُ بكَ – يا ربَّ الفَلَقِ من الضَرْبِ بهذهِ العَصَا * ونسْألُك رحْمَتَكَ؛ فهِيَ أوْسعُ منْ

ذنُوبِنا، ولو كانتْ عدَدَ الرمْلِ والحَصَى * ونَتشَفَّعُ إليْكَ بأكْرمِ الشُفعَاءِ لديْكْ؛ محمدٍ نبيِّ الرَحْمَةْ * أنْ تكشِفَ عنَّا هذهِ الغُمَّةْ * وأنْ تُجِيرَنا من الوَبَالِ والتنْكِيلْ * وأنْ تعْصِمَنا؛ فأنتَ حسْبُنا، ونِعْمَ الوكِيلْ)).

ألَا إنَّ هـــذا الوبـــا قَـــدْ سَـــبَا وَقَـــدْ كـــانَ يرْسِـــلُ طوفانَـــهُ
فـــلا عَاصـــمَ اليـــومَ مـــن أمْـــرِهِ سِـــوى رحمـــةِ اللهِ ســـبْحانَهُ

4. بنية النص الفنيّة:

تجلّت براعة كتّاب العصر المملوكي في تدبيج الرسائل الوصفية، لميلهم إلى نزعة الوصف والتصوير، وحرصهم على مناجزة الشعراء في قصائدهم، حتى إنّ هذه الرسائل لتغدو – في كثير من الأحيان – أقرب مسافة من النثر لولا غياب الوزن.

والنص – الذي بين أيدينا — من هذا الأدب الراقي، صدرت عن أديب شاعر بالأصل، ومن ثمّ، فقد طغت عاطفة الشاعر على عقل الكاتب، من حيث التفنّن في التقاط المؤثرات الخارجية، وترجمة المشاعر والأحاسيس الداخلية، وقد عملت آلة الوصف – بقوة – في وقوفها على الجزئيات، يتتبّعها الذهن بدقة؛ مولّدا من الموصوف الواحد الصور المتعددة المختلفة، ويستقبلها الوجدان بأنواع العواطف والمشاعر والأحاسيس، ويتحرّاه البيان بأنواع التشبيه والاستعارة والكناية، وينشط القاموس اللغوي بتخيّر الألفاظ والعبارات، وانتقاء صنوف البديع المعنوي واللفظي.

ولعل إشكالية تحديد الجنس الأدبي في نص ابن الوردي، واختلاف تصنيفه بين المقامة والرسالة، دليل على حجم الصناعة البديعية التي يوليها الكتّاب لرسائلهم، لدرجة لا يسهل معها التفريق بين الجنسين. وإلى جانب هذه الميزة الكتابية عند ابن الوردي، فقد عكس هذا النمط من الرسائل الأدبية ثقافة كتّاب العصر، وكشف عن مصادرهم الثقافية الموسومة بالشمولية والموسوعية، إلى جانب تعدّد مشاربهم: الأدبية واللغوية، والبلاغية والدينية، والعلمية، والتاريخية..

والمتلقي لرسالة ابن الوردي، قد يشعر بعمق المفارقة بين "شكل" النص، و"مضمونه" عندما يضع مناسبة كتابة هذه الرسالة في الاعتبار؛ فهو من جهة، يتأثر بعمق المأساة التي ضربت مصر وبلاد الشام تحت وطأة الطاعون، وكيف أن آلاف الناس تهلك وتباد، وأنّ مئات المدن تُخلى وتُخوى، ولا يرى ولا يسمع إلاّ ما ارتبط بالموت والفناء، ثم يشعر، من جهة مقابلة، بروعة النص وجماله، وحسن سبكه وبنائه، حين يرى الكاتب يحفل بأنواع الصور والأساليب، وأشكال البيان والبديع، وكأن الكاتب يعيش لذّة نصّه، فيجد متّسعا من الوقت في تنميق رسالته، واصطفاء ألفاظه وصوره، وتعهّد أساليبه بألوان الصناعة والبيان.

غير أنّ عودتنا إلى أدب عصر الضعف قد تتولّى الإجابة عن هذه المفارقة، وأن هذا الشغف بالصناعة البديعية إنّما هو سمة من سمات هذا العصر، الذي لم يرث فيه الأدباء شيئا من سلفهم السابقين بعدما ذهب الأولون بالمعاني والمباني، والصور والأخيلة مذهبا بعيدا، ولم يتركوا للمتأخرين إلاّ سقط المتاع، ولم يكن للمتأخرين – عندئذ – إلاّ أن يتناصوا مع ما ورثوه من علم وأدب، بقصد أو من غير قصد – فيقلدوا، ويحتذوا، ويجاروا ويعارضوا، ويسرفوا على أنفسهم بوضع الشروح والحواشي، والتفصيلات والتفريعات، والتعليقات والتعقيبات، ثمّ تراهم مرتدين على أعقابهم –كالتي نقضت غزلها من بعد قوّة أنكاثا – متّخذين المقلّصات والمختصرات عن إفلاس، أو ترف، وما زال هذا ديدنهم إلاّ في القليل النادر.

لكن الطفرة التي شهدتها العلوم والفنون في عصرٍ نُعِت بـ "عصر العلوم"، و"عصر الموسوعات"، كانت منطلقا لأدباء هذا العصر المتأخر، كي يبدعوا في هذه المعارف أيّما إبداع، خاصة في علوم اللغة والبلاغة، فتغدو بنية الأدب – شعرا ونثرا –قريبة من بنية للعلوم، فحيث لا نجد حرجا في نعت الأدب بـ (علم الأدب)؛ وقد أُلّف في فنون البلاغة ما حمل الأدباء، والمتأدبين إلى تمثّلها في ما يبدعونه من أدب، والتباهي بذلك على العصور السابقة؛ فلم يكن بالإمكان – والحال هذه – الكتابةُ في الأدب، وفي سائر الفنون الأخرى، القريبة منه، إلاّ على هذا المنوالّ، القائم على تقعيد العلوم، وضبط الفنون، وعلمنة الأدب، وهي نتيجة طبيعية لحركة الجمع والنسخ، والتصنيف والتأليف، الذي يحمد عليه هذا العصر العلمي الموسوعي.

أمّا أسلوب رسالة ابن الوردي، فإنّنا نلمس تعدّد ثقافة الرجل، وتداخلها؛ بحيث بدت دوافع الكتابة في التاريخ عند ابن الوردي (وهو العالم المؤرخ)، شديدة الارتباط بدوافع الكتابة الإبداعية (وهو الأديب الشاعر)؛ ندرك ذلك من طريقة صوغ عباراته، واعتماد صنوف البيان والبديع، إلى جانب إيقاعية الفواصل والتسجيع، القريبة – في خصائصها – من إيقاعية أدب المقامة، القريبة – في بنائها البلاغي – من بناء النص الشعري، وإيقاعيته.

ولعل النص – الذي بين أيدينا – نص متخم بذلك، مما لا يستدعي التمثيل. فإن كان – ولا بدّ من ذلك – كفانا عنوان رسالته، التي نشعر فيه بميل واضح إلى اصطياد المجانسات الموجزة الخفيفة؛ فيختار هذا التقارب الإيقاعي بين ملفوظين (رسالة النبا عن الوبا)، بدل العنونة التقريرية المباشرة لفحوى رسالته: (رسالة النبأ عن الوباء).

بقي أن نشير – في الأخير – إلى ظاهرة حضور "الشعر" في نص ابن الوردي بالتوازي مع "النثر"، وهو شعر من نظم ابن الوردي الخاص، حيث اجتمع المنظوم والمنثور في الرسالة لتأدية وظيفة التأريخ؛ فاضطلع فيها النثر بالسرد، واضطلع الشعر بالوصف. مثالنا في ذلك: كلامه عن أعراض الطاعون، حيث سرد مشهد العدوي عند المطعون، ثم أردفه بوصف شعري للمشهد نفسه. فيقول نثرا:

((ومن الأقدارْ * أنّه يتتبَّعُ أهلَ الدَّارْ * فمتى بصَقَ أحدٌ منْهمْ دَماَ * تحقّقوا كلُّهمْ عَدَماَ* ثمّ يسْكنُ الباصِقُ الأجْداثْ * بعد ليلتيْنِ أو ثلاثْ *

ويقول شعرا:

سألتُ بارئ النسَمْ ... في دفعِ طاعونٍ صَدَمْ
فمنْ أحسَّ بَلْعَ دَمْ ... فقدْ أحسَّ بالعَدَمْ

وقد تظهر سمة أخرى في توظيف الشعر عند ابن الوردي، حين يعرض الفكرة نثرا وبصورة مجملة، ثم يتولّى الشعر تفصيلها، عكس ما هو معهود في العصر – العصر المملوكي – حين يعمد الكتّاب إلى نثر المنظوم[**]. مثالنا في ذلك: كلامه عن أثر الطاعون الإيجابي، في الناس، حين يقول، مُوجِزا نثرا:

((ومن فوائدِه: تقْصِيرُ الآمالْ * وتحْسينُ الأعمالْ * واليقَظةُ من الغفْلَهْ * والتزَوُّدُ للرِحْلَهْ.))

ثم يعمد إلى تفصيل هذه الإيجابية نظما مفصّلا، فيعرض مظاهر التحوّل السلوكي عند الناس؛ استعدادا لساعة الرحيل، وذلك، بالتقرّب إلى الله بالطاعات والمبرات من بعد ضلالة أو غفلة.

فهـــــذا يوَصِّـــــي بـــــأولادِهِ وهـــــذا يـــــودِّعُ جيرانَـــــه
وهـــــذا يهيِّـــــئُ أشـــــغالَه وهـــــذا يُجهِّـــــزُ أكفانَـــــهُ
وهـــــذا يصـــــالحُ أعـــــداءَهُ وهـــــذا يلاطـــــف إخوانَـــــهُ
وهـــــذا يوسِّـــــعُ إنفاقَـــــهُ وهـــــذا يخالِـــــلُ مَـــــنْ خانَـــــهُ
هـــــذا يحـــــبِّسُ أملاكَـــــهُ وهـــــذا يحـــــرِّرُ غِلْمانَـــــهُ
وهـــــذا يُغيِّـــــرُ أخلاقَـــــهُ وهـــــذا يعيِّـــــر ميزانَـــــهُ

وقد يحملنا الكلام عن السرد والوصف، في هذه الرسالة، إلى تمحيص فكرة السردية القصصية في رسالة ابن الوردي؛ ذلك أنّ هذا النص قد ولد في أحضان فنين سرديين هما (علم التاريخ) و(أدب المقامة)، في حين، لم تكد تظهر بنية فن الرسالة على الصورة الشائعة المتداولة عند أرباب هذا الفن، وخاصة كتاب الرسالة الديوانية (الإدارية)؛ كون الرسالة الإخوانية قد شقت طريقها في فنون النثر، لتصل إلى مجالات نثرية أرحب، اقتربت فيها من التأليف، ومن فن المقالة.

فأما علم التاريخ؛ فذلك أن ابن الوردي ذكر رسالته (النبا عن الوبا) في كتابه التاريخي: "تتمّة المختصر من أخبار البشر"، وهو تلخيص لتاريخ أبي الفدا، المعروف بـ (مختصر أخبار البشر)، للملك الأيوبي إسماعيل بن على بن محمود، وقد أجراها مجرى السرد التاريخي، حين أرّخ لوباء الطاعون الذي اجتاح مصر والشام (سنة 749هـ)، لولا لمسة ابن الوردي الأدبية فيها.

وأما أدب المقامة: فقد اختار ابن الوردي لرسالته الشكل المقامي، الذي يعتمد حدثا وإطارا زمكانيا، ولغة سردية راقية، وأسلوبا متميّزا بصناعته البيانية والبديعية، على طريقة كتّاب المقامات.

فمن العناصر السردية التي نستشفها في النص:

أ) **الموضوع (الحدث):**

تحديد ابن الوردي لموضوعه، وهو: رصد وقائع هذا الوباء الجائح، وآثاره المدمرة على بلاد الإسلام. وكان بداية الحدث: "**طاعون روّع وأمات..**"

ب) حيز الزمان:

كانت الغاية التأريخية عند ابن الوردي تقنيةً واضحة للتعامل الموضوعي مع زمنية النص. فقد أشار (خارج النص) على حيز حدثه التاريخي (حوادث وقعت سنة 794هـ بمصر وأرض الشام)، كما أشار (داخل النص) إلى الحقبة التي استغرقها وباء الطاعون في المنطقة (خمس عشرة سنة)، ثم كان التفصيل في السنة التي كان ابن الوردي شاهدا عليها، وهي سنة (794هـ).

ج) فضاء المكان:

أما المكان، فقد قدم خريطة مفصلة لفضاء هذا الطاعون، ابتداء من الصين وانتهاء بحلب السورية أين يلقى الكاتب – نفسه – مصرعه بالطاعون سنة 794هـ.

د) الشخصيات:

أمّا "فواعل" النص، فقد يمثل ابن الوردي في حدث (رسالته/ مقامته) شخصية "السارد الراوي"، بوصفه – كما ينعته أهل السرديات*** – الشاهد العليم بكل مجريات الحدث الدرامي، إلى جانب شخصيات تطفو على السطح، عبر مراحل السرد، مثل: أعيان مدينة حلب، ودورهم في إدارة المعركة ضد الوباء، وهي ممثلة للشخصية الموجبة (الخيّرة) في الحدث، تقابلها شخصيتان سلبيتان (شرّيرتان):

– الأولى: طائفة الجنائزية (حملة التوابيت)، وسلوكهم الانتهازي؛ حين حقّقوا الثراء الفاحش، باستغلال معاناة الأهالي.

– الثانية: طائفة الأرمن المسيحيين، سكان مدينة "سيس"، الشامتة في المسلمين، والمؤمنة بأنّ الطاعون هو العذاب المنزّل من السماء ضد الكافرين (غير المسيحيين؛ أي: المسلمين).

هـ) اللغة السردية:

وقوامها: السرد الذي تأسست عليه (الرسالة / المقامة)، حيث يتخلّلها الوصف المناسب لتصوير المشاهد الدرامية للوباء، مع بعض الصيغ الحوارية: الخارجية (الديالوجية)، والداخلية (المونولوجية)، التي تتطلّبها تواصلية النص السردي.

وتبقى الصياغة الأسلوبية العنصر المميز في لغة السرد، وقد اعتمد ابن الوردي على الأسلوب المقامي، ولعبة اللغة الموحية، والصنعة البيانية البانية، وكثرة البديع المعنوي واللفظي، ووفرة الإيقاع الناجم عن كثافة السجع والجناس[8].

5. خاتمة:

لقد قدر لابن الوردي أن يكون شاهدا على عصره المملوكي (691هـ – 749هـ)، مؤرخا لوباء الطاعون الذي ضرب مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي، وكان ابن الوردي أحد ضحاياه. كما قدر للأدب أن يتعرّف إلى قطعة أدبية رائعة وجدت مكانها بين مادة تاريخية، لا يطلب من كاتبها إلاّ أن يكون أمينا في نقل مشاهداته، ملتزما النقل الموضوعي، متحرّيا الحقيقة ما استطاع، معبّرا عن الحقائق التاريخية بالأسلوب المرسل، البعيد عن الصنعة والتكلّف.

ولقد طفا قلب الأديب الفنان على عقل العالم المؤرخ في قطعته النثرية، كأنما شعر ابن الوردي بعجز اللغة التقريرية عن وصف هول ما فعله الوباء، فإذا به يستميل العاطفة، ويستثير المخيلة، باللفظ المؤثر، والصورة الواصفة، والأسلوب المحرّك، فكانت مشهدية الحدث التاريخي – من خلال رسالة ابن الوردي – أقرب إلى العرض (الدرامي) لفصول وقائع فظيعة بطلها "الطاعون"، وفضاؤها مدن مصر والشام.

والذي يمكن أن نقف عليه في هذه الخلاصة:

أولا: خصوصية الشكل الفني الذي عرض به ابن الوردي هذا الحدث الوبائي، حيث اختلف دارسوه في جنس نصه المعروض المتراوح – في شكله – بين الرسالة والمقامة، وقد البحث إلى رسالية النص.

ثانيا: استعرضنا البنية الفكرية للنص، من خلال استعراض مقطعات الرسالة المتساوقة مع العرض التاريخي الجغرافي (الزمكاني)، المرافق لوتيرة الزحف الوبائي، وتمدّده الفضائي، من باب تحديد عناصر الموضوع.

ثالثا: مثّلت الرسالة لدينا أنموذجا لنثر عصر المماليك، واستغراقه في البديع. وقد اختار ابن الوردي النمط المقامي لشكل نصه الرسالي إشباعا لنهمه للصناعة البديعية.

رابعا: يقدم النص صورة لامتزاج "النثري" بـ "الشعري"، حيث يقف الكاتب من نصه وقوف (المؤرخ/ الناثر)، و(الأديب/ الشاعر)، جامعا وظيفة (الإمتاع) إلى وظيفة (الانتفاع).

خامسا: يعدّ النص وثيقة تاريخية أساسية، تناولت حدثا كارثيا له امتداداته السياسية والاجتماعية والنفسية، إلى جانب بعده الثقافي والحضاري. فقد تناول الكاتب في أفكار نصه مظاهر مواجهة الوباء، من خلال إجراءات وقائية ترتبط بروتوكول صحي يحدّد نوع الطعام والشراب المنصوح بهما، إلى جانب صور التطهير والتعقيم الواجب سلوكه. كما يعرض النص لظاهرة اجتماعية تمثّلت في ارتقاء طائفة من الطبقة الدنيا، وهي طائفة "الجنائزية"؛ أي صناع التوابيت وحملة النعوش، الذين انتهزوا الظروف الوبائية لأجل الإثراء، والتسلّق الاجتماعي على جثث ضحايا الطاعون. ولا يغفل كاتبنا المؤرخ ذكر ذلك الصراع العقائدي بين طائفة الأرمن وبعض مسلمي الشام، مما يستحضر فكرة الصراع الديني (الصليبي الإسلامي) في العصر.

سادسا، وأخيرا: النص أنموذج فني لـ "أدبية" النص عند ابن الوردي، أين اجتمعت الموسوعية عند المثقف المملوكي، مجسدة مقولة ابن خلدون الشهيرة في صورة أديب العصر وقد "أخذ من كلّ علم بطرف"؛ ذلك أنّنا مع ابن الوردي المؤرخ، والفقيه، والقاضي، والكاتب، والشاعر.

6. الملحق: رسالة النبا على الوبا لابن الوردي

أولا – مصادر الرسالة:

– عمر بن مظفر الوردي: ديوان ابن الوردي، تح. عبد الحميد هنداوي، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط.1، 2006، صص: 87 -91.

– عمر بن مظفر الوردي: مختصر كتاب تاريخ أبي الفدا (تتمّة المختصر في أخبار البشر) للملك المؤيد إسماعيل صاحب حماة). العروف بتاريخ ابن الوردي: المطبعة الحيدرية – النجف العراق) 1969. ينظر الصفحات: 504-501.

ثانيا – نص الرسالة:

"اللهُ لي عُدَّهْ * عند كلِّ شِدَّهْ * حسْبِيَ اللهُ وحدَهْ * أَلَيْسَ اللهُ بكافٍ عبْدَهْ * اللّهمَّ صلِّ على سيدنا محمدٍ وسلِّمْ * ونجِّنا بجَاهِهِ منْ طعَناتِ الطاعونِ وسلّمْ * طاعونٌ روّعَ وأماتْ* وابْتدأَ خبرُهُ منَ الظلماتْ * يا لهُ من زائرْ* مِن خمْسَ عشرةَ سنةٍ دائرْ *

ما صِينَ عنه الصِّينْ * ولا منعَ منه حِصنٌ حصينْ * سَلَّ هِنديًا في الهِندِ * واسْتنَدَ على السِنْدِ * وقبَضَ بكفَّيْهِ وشَبَّكْ * على بلادِ أَزْبَكْ * وكَمْ قَصَمَ من ظهْرٍ * فيما وراءِ النهْرِ.

ثم ارتفعَ ونَجَمْ * وهجمَ على العَجمْ * وأوْسعَ الخُطَى * إلى أرضِ الخَطَا * وقرَمَ القَرِمْ * ورمَى الرُومَ بجمْرٍ مُضْطَرِمْ * وجرَّ الجَرائرْ * إلى قُبْرُصَ والجزَائرْ*

ثمّ قهرَ خَلْقًا بالقاهِرهْ * وتنبَّهَتْ عيْنُهُ لمِصرَ، فإذا همْ بالساهرَهْ * وأسكَنَ حَرَكَةَ الاسْكَنْدرِيَّهْ * وعمِلَ شُغْلَ القَزِّ الحَريريَّهْ * أخذَ مِن دارِ الطِّرازِ طِرازَ الدارْ * وصنَعَ بصُنّاعِها ما جرَتْ عليهِ الأقدارْ.

اسْـــــــــكَنْدرّيةُ، ذا الوَبَـــــــــا ســـــبْعٌ يمُـــــدُّ إليْـــــكَ ضَـــــبْعَهْ
صـــــــبرًا لِقِســـــــمَتِهِ الـــــــتي تركَـــــتْ مِـــــنَ السَّـــــبْعينَ سَـــــبْعَهْ

ثم تيَمَّمَ الصَعِيدَ الطَيِّبْ * وأبْرقَ على بُرْقَةَ صَيِّبْ * ثم غزَا غَزَّهْ * وهزَّ عسْقلانَ هَزَّهْ * وعَكَّ إلى عَكَّا * واسْتَشْهدَ بالقُدسِ، وزَكَّى * فلَحِقَ من الهاربينَ الأقْصىَ بقلْبٍ منْهُ الصَّخْرهْ * ولولا فتْحُ بابِ الرحمهْ، لقامتِ القائمةُ في قرَّهْ * ثم طوَى المراحِلْ * ونزلَ بالساحِلْ* فصادَ صيْدَا * وبَغَتَ بيْروتَ كيْدَا * ثمّ سدَّدَ الرَشْقْ * إلى جِهةِ دِمشْقْ * فتربَّعَ ثَمَّ، وتمَيَّدْ * وفتَكَ كلَّ يومٍ بألْفٍ، وأزْيدْ * فأقلَّ الكثْرهْ * وقتلَ خَلقًا بِبَثْرَهْ.

أصـــــــــلح الله دمشـــــــــقاً وحماهـــــــا مـــــــن مســـــــبه
نفســـــــــها خســـــــــت إلى أن تقتـــــــل الـــــــنفس بحبـــــــه

ثمّ مَرَّ المرَّهْ * وبرَزَ إلى برَزهْ * وركِبَ تركيبَ مزْجٍ على بعْلَبَك * وأنْشدَ في قَارَةَ قِفَا نبْك* وغسَلَ الغسُولَهْ * وبلغَ من كسوفِ شمسِ شمْسِينَ سُولَهْ * وطرَحَ على الجبَّةِ برْشَهْ * وأزْبدَ على الزبَدانِيّ نعْشَهْ * ورمَى حِمْصَ بجَلْ * وصرَفَها، مع عِلْمِه أنَّ فيها ثلاثَ عِلَلْ * ثمّ طلَّقَ الكَنَّةَ في حَمَاهْ * فبرَدتْ أطْرافُ عاصِيها من حَماهْ *

يـــا أيّهـــا الطـــاعونُ، إنّ حمـــاةَ مِـــن خـــيرِ الـــبلادِ، ومـــن أعـــزِّ حُصُـــونِها
لا كنْـــتَ، حـــينَ شَمَمْتَهـــا، فسَـــممْتها ولثَمْـــتَ فَاهَـــا، آخِـــذاً بقُرُونِهـــا

ثمّ دخلَ معرَّةَ النُعمانْ * فقال لها: أنتِ مني في أمانْ * حماةُ تكْفيكْ * فلا حاجةَ لي فيكْ.

رأى المعـــرّةَ عينـــاً زانَهـــا حَـــوَرٌ لكـــنَّ حاجِبهـــا بـــالجُور مقْـــرونُ
مـــاذا الـــذي يصـــنعُ الطـــاعونُ في بلـــدٍ في كـــلِّ يـــومٍ لـــهُ بـــالظلمِ طـــاعونُ

ثم سرَى إلى سَرَمِينَ والفُوعهْ * فشنّعَ على السُّنّةِ والشِيعَهْ * فسنَّ للسُنّة أسِنَتَه مُشْرِعَا* وشيّع في منازِلِ الشِّيعَةِ مصْرَعاً * ثمّ أنْطَى أنْطاكيَةَ بعضَ نَصيبْ * ورحلَ عنه حياءً من نسيانِه ذكرَى حبِيبْ * ثم قال لشيْرَزَ وحارِمْ: لا تخافا مني * فأنتما، من قبلُ ومن بعدُ – في غنًى عنِّي * فالأمكِنةُ الرَّدِيّهْ * تصحُّ في الأزمنةِ الرديّهْ .

ثمّ أذلَّ عِزازَ وكَلَزَهْ * وأصْبحَ في بيُوتِها الحارثُ، ولا أغْنَى ابنَ حَلَزَهْ * وأخذَ من أهلِ البابْ * أهْلَ الألبابْ * وباشرَ تلَّ باشِرْ * ودلَكَ دَلوكَ وحاشِرْ * وقصدَ الوِهادَ والتِلاعْ * وقلعَ خَلْقاً من القِلاعْ * ثمّ طلبَ حَلَبَ * ولكنّهُ ما غلَبَ * فهو – ولله الحمدُ – أحفُّ وطأهْ * ولم أقلْ: كزرْعٍ أخرَجَ شَطْأَهْ.

إنَّ الوبَـــــا قـــــد غلبَـــــا وقـــــدْ بـــــدَا في حَلَبَـــــا
قـــــالوا: لـــــهُ علـــــى الـــــورَى كـــــافٌ، ورَا. قلـــــتُ: وبَـــــا

ومن الأقدارْ * أنّه يتتبَّعُ أهلَ الدَّارْ * فمتى بصَقَ أحدٌ منْهمْ دَماً * تحقّقوا كلُّهمْ عَدَماً* ثمّ يسْكنُ الباصِقُ الأجْداثْ * بعد ليلتيْنِ أو ثلاثْ *

ســـــألتُ بـــــاديَ النسَـــــمْ في دفـــــعِ طـــــاعون صَـــــدَمْ
فمـــــا: أحـــــسَّ بَلْـــــعَ دَمْ فقـــــدْ أحـــــسَّ بالعَـــــدَمْ

اللّهمّ: إنّهُ فاعلٌ بأمْرِكْ، فارْفعْ عنَّا الفاعلْ * وحَاصِلٌ مِن عندِ مَن شئْتَ، فاصْرِفْ عنَّا الحَاصِلْ * فمَنِ لدفْعِ هذا الهوْلْ *غيْرُكَ يا ذا الحَوْلْ *كمْ دخلَ على مكانْ * فحلَفَ: لا يخْرُجُ إلَّا بالسُكَّانْ * ففَتّشَ عليْهمْ بسِراجْ * وهذا الذي جلَبَ لأهْلِ حَلَبَ الإزْعاجْ * استَرْسلَ ثُعبانُه وانْسابْ * وسُمِّيَ طاعونُ الأنْسابْ * وهو سادسُ طاعونٍ وقعَ في الإسلامْ * وعندي: أنّهُ الموتُ الذي أنْذرَ به نبيّنَا، عليه أفضلُ الصلاةِ والسلامْ.

حلَـــــــبٌ – واللهِ – يكْفِـــــــي شـــــــرَّها أرضُ مشـــــــقَّهْ
أصـــــــبحتْ حيَّـــــــةَ سُـــــــوءٍ تقتُـــــــلُ النَّـــــــاسَ ببَزْقَـــــــهْ

ولوْ رأيتَ الأعْيانَ بحلَبَ، وهمْ يَطالعونَ من كُتُبِ الطبِّ الغوامِضْ * ويكْثِرونَ مِن أكلِ النواشِفَ والحوامِضْ * قد تنَغَّصَ عيْشُهم الهَنِيّ * بمُلاطَخةَ الطينَ الأرْمِنِي * قدْ لاطفَ كلّ منْهم مِزاجُه وعدَّلْ * وبخَّرُوا بيُوتَهم بالعنبرِ والكافورِ، والسعْد والصَنْدلْ * وتخَتّمُوا بالياقوتْ، وجعلوا البصَلَ والخَلَّ من جُملَةِ الأدَمِ والقُوتْ * وأقلّوا من الأمْراقِ والفاكِهَهْ * وقرّبوا إليهم الأُتْرُجَّ، وما شَابَهَهْ.

ولو شاهدْتَ كثرةَ النُعوشِ وحمَلَةَ الموْتَى* وسمعْتَ من كلّ قُطْرٍ بحَلَبَ نحِيبًا وصوْتَا * لوَلَّيْتَ منهمْ فِرَارَا * ولأبَيْتَ فيهمْ قَرَارَا * فلقدْ كثُرتْ فيها أرزاقُ الجنَائزِيَّة، فلا رُزِقُوا * وعاشُوا بهذا الموْسِمِ، وعُرِفوا من الحمْلِ، فلا عاشُوا ولا عَرَقُوا * فهمْ يلْهَون ويلْعبُونْ* ويتقَاعَدُون على الزُبُونْ *

اسْـــــــوَدَّتِ الشـــــــهْباءُ في عَيْـــــنَيَّ مـــــنْ رَمَـــــمٍ وغِـــــشّ

كـــــادتْ بنُـــــو نعْـــــشٍ بهـــــا أنْ يلْحقـــــوا ببنَـــــاتِ نَعْـــــشِ

فنسْتغْفِر اللهَ من هوى النفوسِ؛ فهذا بعضُ عِقابِهْ * ونعوذُ برِضاهِ من سخَطِهْ، وبمُعافاتِه من عذابِهْ *

قـــــالوا: فســـــادُ الهـــــواءِ يُـــــرْدِي فقلـــــتُ: يـــــرْدي هَـــــوَى الفَسَـــــادِ
كـــــمْ ســـــيْئاتٍ، وكـــــمْ خَطايَـــــا نـــــادَى علـــــيْكمْ بهـــــا المـــــُنَادِي

ومما أغْضبَ الإسلامْ * وأوْجبَ الآلامْ * أنَّ أهْلَ سِيسَ الملاعِينْ * مسْرورُون لبلادِنا بالطواعينْ * حتى كأنَّهُمْ منْه في أمَانْ * أو عليهمْ ألاّ يَقْربَهم ضَمانْ * أو كأنّهُم، إذا ظَفَرُوا * ربَّنَا لا تجْعلْنا فِتْنةً للّذينَ كَفَرُوا *

سُـــكانُ سِـــيسَ يسُـــرُّهُمْ مَـــا سَـــاءَنَا وكـــذَا العوائـــدُ مـــن عـــدوِّ الـــدينِ
فـــــاللهُ ينْقلُـــــهُ إلـــــيْهمْ عـــــاجِلاً لِيُمَـــــزِّقَ الطَـــــاغُونَ بالطَـــــاعونِ

هذا، وهوَ للْمسلمينَ شهادةٌ وأجْرُ * وعلى الكافرين رِجْزٌ وزَجْرُ * إذا صبَر المسلمُ على مُصيبَتِهِ، فالصبْرُ عِبادَةْ* وقد ثَبُتَ عنْ نبيِّنا (صلى الله عليه وسلم) أنّ المطعونَ شهيدٌ، فهذا الثُبوتُ حكْمٌ بالشَهادَةْ * وهذِه الخفِيّةْ * تعْجِبُ الحَنفيّةْ * فإنْ قال قائِلٌ: هو يُعْدي ويُبِيدْ * قلتُ: بلِ اللهُ يُبْدِي ويُعيدْ * فإنْ جادَلَ الكَاذِبُ في دعْوَى العَدْوَى وتأَوَّلْ * قلنا: فقدْ قالَ الصادقُ (صلى الله عليه وسلم) فمنْ أعْدَى الأَوَّلْ * ولوْ سَلَّمْنا فَتْكَهُ بأهلِ الدارْ * فهو بإرادةِ الفاعِلِ المخْتارْ * ومن فوائدِه: تقْصِيرُ الآمالْ * وتحْسينُ الأعمالْ * واليقَظةُ من الغفْلَهْ * والتزَوُّدُ للرِحْلَهْ.

فهـــــذا يوَصِّـــــي بـــــأولادِهِ وهـــــذا يـــــودِّعُ جيرانَـــــه
وهـــــذا يهيِّـــــئُ أشـــــغالَه وهـــــذا يُجهِّـــــزُ أكفانَـــــهُ
وهـــــذا يصـــــالحُ أعـــــداءَهُ وهـــــذا يلاطـــــف إخوانَـــــهُ
وهـــــذا يوسِّـــــعُ إنفاقَـــــهُ وهـــــذا يخالِـــــلُ مَـــــنْ خانَـــــهُ
هـــــذا يحـــــبِّسُ أملاكَـــــهُ وهـــــذا يحـــــرِّرُ غِلْمانَـــــهُ
وهـــــذا يُعيِّـــــرُ أخلاقَـــــهُ وهـــــذا يعـــــيِّر ميزانَـــــهُ

وما منَعنَا الفِرارَ منْهُ إلاّ التَمسُّكُ بالحديثْ * فهلُمَّ بنا نسْتغيثُ إلى اللهِ – تعالى – في رفْعِه، فهو خيرُ مُغيثْ * : اللّهمّ إنّا ندْعوكَ بأفْضلِ ما دعاكَ به الداعُونْ * أنِ ترْفعَ عنَّا الوبَا والطاعونْ * لا نلْتَجِي في رفْعِهِمَا إلاّ إليْكْ * ولا نُعَوِّلُ في العافِيَةِ منْهُما إلاّ عليْكْ * نعُوذُ بكَ – يا ربَّ الفَلَقِ من الضَرْبِ بهذهِ العَصَا * ونسْألُك رحْمَتَكَ؛ فهِيَ أوْسعُ منْ ذنُوبِنا، ولو كانتْ عدَدَ الرمْلِ والحَصَى * ونَتشَفَّعُ إليْكَ بأكْرمِ الشُفعَاءِ لديْكْ؛ محمدٍ نبِيِّ الرَحْمَهْ * أنْ تكشِفَ عنَّا هذهِ الغُمَّهْ * وأنْ تُجيرَنا من الوَبَالِ والتنْكِيلْ * وأنْ تعْصِمَنا؛ فأنتَ حسْبُنا، ونِعْمَ الوكِيلْ".

أَلَا إِنَّ هَـــذا الوبـــا قَـــدْ سَـــبَا وَقَـــدْ كَـــانَ يُرْسِـــلُ طوفانَـــهُ
فَـــلا عَاصِـــمَ اليـــومَ مِـــن أَمْـــرِهِ سِـــوى رحمَـــةِ اللهِ ســـبْحانَهُ

7. المراجع:

أولا – المصادر:

– وردي (زين الدين عمر بن الوردي): تاريخ ابن الوردي تتمّة المختصر في أخبار البشر)، تقديم: محمد مهدي السيد حسن الموسوي، المطبعة الحيدرية – النجف (العراق)، 1969.

– وردي (زين الدين عمر بن الوردي): ديوان ابن الوردي، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط.1، 2006.

– سخاوي (شمس الدين السخاوي): وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام"، تح. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط.1، 1995.

– ظاهري (ابن شاهين الظاهري): نيل الأمل في ذيل الدول، تح. عمر عبد السلام التدمري، المكتبة العصرية، صيدا (لبنان)، ط.1، 2002.

ثانيا – الكتب:

– ضيف (شوقي ضيف): تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات "الشام")، دار المعارف، القاهرة، ط.2، 1990.

ثالثا – المجلات والدوريات:

– دعدي (سعدة طفيف مبارك الدعدي): رسالة النبا عن الوبا (دراسة في تقنيات السرد)، مجلة الأثر، جامعة قاصدي مرباح، المجلد: 18، العدد: 1، جوان 2021.

هوامش:

[1] - هو زين الدين، أبو حفص، عمر بن المظفر بن عمر بن محمد ابن أبي الفوارس المعرّي الكندي. المعروف بابن الوردي. أديب شاعر، ومؤرخ، وفقيه شافعي. ولد بمعرّة النعمان في بلاد الشام، عام 691هـ/ 1292م. ولي القضاء بمنبج. توفي بحلب السورية، سنة 749هـ/ 1349م، في وباء الطاعون. من مؤلفاته: تاريخ ابن الوردي، ويعرف بتتمة المختصر في أخبار البشر، إلى جانب ديوان الشعري.

[*] عمر بن الوردي: ديوان ابن الوردي، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط.1، 2006، ص: 281.

[3] – شمس الدين السخاوي: وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام"، تح. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط.1، 1995، 1: 35

[4] – ابن شاهين الظاهري: نيل الأمل في ذيل الدول، تح. عمر عبد السلام التدمري، المكتبة العصرية، صيدا (لبنان)، ط.1، 2002، 1: 178.

[5] – ينظر: ديوان ابن الوردي، ص: 87

[6] – زين الدين عمر بن الوردي: تاريخ ابن الوردي، تقديم: محمد مهدي السيد حسن الموسوي، المطبعة الحيدرية – النجف (العراق)، 1969، 2: 501.

[7] – شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات "الشام")، دار المعارف، القاهرة، ط.2، 1990، ص: 325.

[*] ربما قصد الكاتب بالجزائر تلك الجُزيْرات الأربع، القريبة من الساحل الجزائري، التي اتخذ منها الاسبان حصونا على البحر المتوسط، لحماية مستعمراتها. وقد استطاع الأتراك، في القرن العاشر الهجري (ق16م)، افتكاكها، وهدمها، وضمّها إلى بعضها لإنشاء مدينة قوية أسموها (الجزائر) تابعة للدولة العثمانية، وهي دولة الجزائر اليوم.

[**] لابن الأثير كتاب في هذا المنحى أسماه "نظم المنثور، وحلّ المنظوم"

[***] حدّد الناقد البلغاري (تزفيتان تودوروف) هذه العلاقة السردية المتحققة بين الراوي والشخصية، تحت مفهوم "الرؤية السردية"، في صور ثلاثة:

– "الرؤية من الخلف": ورمزها الرياضي: (الراوي أكبر من الشخصية)، حيث يكون (السارد/ الراوي) أكثر معرفة من الشخصية، وهو المقصود بالشاهد العليم. والشكل الصيغي المهيمن هو: ضمير الغائب المناسب للحكاية والعرض.

– "الرؤية مع": ورمزها الرياضي (الراوي مساو للشخصية)، حيث الراوي لا يعرف إلا ما تعرفه الشخصية. والشكل الصيغي المهيمن هنا هو: ضمير المتكلم، أين تقوم الشخصية بسرد الأحداث بنفسها، مثل ما هو الحال في السيرة الذاتية، أو أدب الرحلات.

– "الرؤية من الخارج": ورمزها الرياض: (الراوي أصغر من الشخصية)، حيث الراوي لا يعرف ولا يقول إلاّ ما تعرفه الشخصية أو تقوله، فهو يصف ما يراه أو يسمعه، ولا يعرف ما يدور في ذهن الشخصية، أو ما تشعر به. وهذا النمط من الرؤية مناسب للرواية الشيئية التي تصف الأشياء المادية، أو تتوقف عند المظاهر المادية الحسية دون أن تقدم توضيحا أو تفسيرا أو موقفا.

[8] – ينظر: سعدة طفيف مبارك الدعدي: رسالة النبا عن الوبا (دراسة في تقنيات السرد)، مجلة الأثر، جامعة قاصدي مرباح، المجلد: 18، العدد: 1، جوان 2021، الصفحات: 77 – 110.